الفصل الخامس

مُكابَداتُ التجنيد الإجباري!

وداع أطياف المحبة

الانخراط في الخدمة العسكرية في زمن التيه معناه الغطس في خابية الفخار إلى قاع نتونتها! لكن فتح الله ليس يخشى أحداً إلا الله.. وإن كان من شيء يقلقه الآن، فهو كيف يحفظ سره في ثكنات الجيش؟ لكن إيمانه العميق سرعان ما كان يهدئ قلبه، ويسكن بحر خواطره.. فما كان الله ليخذل عبداً يحمل سره!

.....

وخرج الفتى من غار نافذته فرداً، ثم استأنف السير وحيداً في طريق هجرته الأبدية!..

كان يحمل متاعه القليل بيده، ويسير بخطى ثابتة، في اتجاه محطة القطار، قصد الرحيل إلى أنقرة لتسليم نفسه هناك للخدمة العسكرية الإجبارية. وبينما هو واقف بالمحطة، ينتظر وصول القطار إذا به يرى كوكبة من موظفي الشؤون الدينية بأَدِرْنَه، وبعض الأئمة والعلماء، يتقدمهم المفتي العظيم "يَشَارْ طُونَاكُورْ" قد جاؤوا لوداعه! وكان من بينهم الخال "حسين طوب"، و"سليم أَرِيجِي" الإمام الأول -سابقا- لمسجد الشرفات الثلاث. كان "سليم أَرِيجِي" إمام الخطبة بالمسجد المذكور، وفتح الله إمام الصلوات الخمس به. وما كان الإمام سليم مرتاحا لوجود الفتى بمسجده، لما يعلمه من قوة علمية لديه وموهبة خطابية متميزة؛ فكان يخشى منافسته أو أن يحتل مكانه؛ ولذلك فإنه ما استجاب قط لطلب الإمام الشاب في إلقاء خطبة بالنيابة عنه، ولا مرة واحدة! لكن الرجل يبدو أنه ندم على

هذه التصرفات، لِمَا شاهد من محبة أهل أَدِرْنَه له، ولِمَا تيقن من إخلاص الفتى للدين، وزهده في الدنيا ومتاعها. فجاء مع الوفد المودع وهو يحمل منديلا كبيرا لف فيه كعكا وأنواعا من الحلويات، فلما عانق الفتى مودعا دسه بين يديه قائلا: "عندما تنتهي من الخدمة العسكرية عد إلى أَدِرْنَه لنعمل معاً"! وكان سرور فتح الله ساعتها عظيما بما وجده في صاحبه من ليونة ودودة، وتحبب غير معهود! فقبل هديته المفاجئة، ولم يزل -بعد ذلك- يحتفظ بالمنديل الذي لُفَّتْ فيه الحلوى لعدة سنوات!

أما الداعية المفتي "يشار هُوجَا" فعندما عانق الفتى مودعا فإنه لم يتمالك نفسه -على جلالة قدره- حتى أجهش بالبكاء، لأنه كان يعلم أي فتى تفقده اليوم أَدِرْنَه! والحقيقة أن الأستاذ "يشار" كان قلبه قد تعلق بحب هذا الفتى الواعد، وكان يرى فيه خليفة له!

وغادر فتح الله أَدِرْنَه بعين باكية وقلب حزين... وما أن تحركت به عربة القطار حتى شعر أنه يفقد أشياء مهمة في حياته... النافذة العزيزة، والمسجد الأثري الأثير، والمقهى الدعوي، ومجالس الطلاب الخفية، وأحبة من العامة والخاصة، كل ذلك يتحول الآن في قلبه إلى مجرد ذكرى، وقد كان قبل لحظات حياة مشهودة يعيشها! فما أقسى طبيعة هذه الحياة الدنيا! ما من متعة فيها إلا وينغصها الفراق!

وفي أنقرة قبل أن يسلم نفسه للعسكرية بحث الفتى عن صديقه الحميم صالح أوزجان. فلما وجده جعل يتردد عليه لمدة خمسة أيام. فكان له مصدر تسلية وإيناس، وهو يتهيأ للدخول إلى عالم غريب وتجربة أخرى من حياته، تختلف جذريا عما نشأ عليه وشب، خاصة في تلك الظروف التاريخية الصعبة!

الأَسِير!

أن تَخرُج من جيش محمد الفاتح وتنخرط في مسلك آخر؛ فذلك يعني أن الأرض فقدت توازنها، وانقلبت دورة الزمان، فأشرقت الشمس من مغربها!

وما كان لفارس قادم من زمن النور إلى عصر الظلمات؛ إلا أن يكون فاتحاً أو شهيداً أو أسيراً أو كل ذلك جميعاً!

أما فتح الله فلم يزل بما تلقَّى من أسرار النور يسافر في الزمان! ولم يزل مذ تلقَّى رسالة بديع الزمان منخرطاً في جيش محمد الفاتح، يرحل كل مساء إلى خيام معسكره، فيدرب الفرسان على خوض البحر هنالك سِرّاً، ويعلمهم كيف يرسمون خرائط الفتح القادم، ثم يعود مع الفجر الصادق، ليصلي بالناس في محرابه! فتح الله يملك خريطة فتح رومية، وغزو بلاد الظلمات وإشبيلية، ولديه خطة لحصار يأجوج ومأجوج!.. هو وحده يعرف كيف تُسْتَلُّ سيوفُ البرق اللاهب من غمد الغيم الغاضب! وكيف تُصَفُّ الخيلُ على ميزان الصف الأول! وكيف تُنَظَّمُ دقاتُ القلب على وَقْعِ سَنَابِكِهَا! وهو وحده يحسن إعداد سرايا الشمس، وإرسال أشعتها إلى كل العالَم!

فتح الله ما يزال يصقل مرايا الروح بدمع الليل الساجي، وينصبها كل صباح في وجه أشبال فقدت ذاكرتَها، وتوهمت أنفسَها نعاجاً فيريها صورتَها عياناً ويُذَكِّرُهَا بأن سلالتها من جنس أُسُودٍ!

فتح الله طيفٌ من أبدال الدهر، ولكن من يعرف سر صناعته؟ من يشهد أمواج الروح وهي تتدفق على شواطئ صدره؟ من يعرف كيف تشرق الشمس بعينيه، فيرَى ما ليس يُرَى، ثم يرسم للعالم بعضَ مَشَاهِدِهِ؟

فتح الله اليوم فارسٌ منتظم في جيش النور برتبة قائده الأعلى! وكان لفرسان الروح أميراً خيرَ أمير..! لكنه سِيقَ إلى مسلك آخر في وضعِ أسير..! فبكت كل محاريب تركيا وجميعُ منابرها أَسَفاً!

وبَقِيَ فتح الله في الأسر يحمل أشواق الفتح، وآمال النصر القادم، يحتضن أسراره في قلبه فرداً، ولا أحد يعرف ماذا يخفيه ليوم الشدة!

حَيُّ "مَمَاقْ" مصنع الانقلابات العسكرية!

حدثني راوي الأشجان قال:

في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٦١م، انخرط فتح الله في الخدمة العسكرية، وتم تعيينه في إحدى الثكنات الكبرى بحيّ "مَمَاق" العسكري، في مدينة أنقرة. "مَمَاقُ" اسم مخيف في التداول العسكري التركي! فهو حَيٌّ كبير يضم عدداً من الثكنات والمدارس العسكرية، وآلاف الضباط والجنود، ومخازن لا تحصى من المعدات الحربية وأنواع الذخائر..! وكان له دور تاريخي حاسم في أغلب الانقلابات العسكرية التي حدثت في تركيا!

"محمد مُوطْلُو" كان رجلا عسكريا برتبة ملازم، وكان من محبي الفتى الإمام. وكان في الوقت نفسه صديقا قديما لـ"يِلْمَاز بَكْ"، قائد الثكنة التي عين فيها الفتى. فجاء الملازم "محمد مُوطْلُو" وأوصى بالعسكري الشاب إلى القائد "يلماز". ومن ناحية أخرى كان الفتى قد بَلَّغَ سَلاَماً إلى أحد قواده الآخرين في نفس الكتيبة، حُمِّلَ به من لدن أحد أقربائه في أَدِرْنَه، مع علبة من حلوى "عجين اللوز". فكانت تلك الأمور جميعها إشارات

سكينة وأمان، تلقاها فتح الله، وهو يقتحم تجربة التجنيد العسكري في جيش ليس كأي جيش!

ودخل الفتى برنامج التدريب العسكري مع رفاقه الجدد.. وصار يتلقى تقنيات القتال بشتى أنواعه!

ذات يوم ناداه القائد الأعلى للثكنة "يِلْمَاز بَكْ"، فسأله:

- أنت هو الإمام؟

- فأجاب: نعم!

- فقال: "إن زوجتي مريضة، فهل تستطيع أن تقرأ عليها شيئا ترقيها به؟"

- فقال الإمام على الفور: "عفوا سيدي! أنا لا أحسن هذه الأشياء! وإذا كنتم تعتقدون أن القراءة عليها تفيدها، فقراءتكم أنتم عليها تكون أفيد!"

وأُعجب القائد بجوابه الحكيم، وازداد بذلك تقديراً له. ثم اكتشف الفتى بعد ذلك أن "يِلْمَاز بَكْ" إنما كان يمتحنه! ومن ثَمَّ جعلوه مسؤولا على راديو اللاسلكي! فمكث في الثكنة أربعة أشهر إضافية لاستكمال التدريب على الآلات.

وعلى الرغم من كل هذه العنايات فقد قاسَى فتح الله بثكنة أنقرة كثيراً! فعلى المستوى الروحي صار له شعور بأنه لا يؤدي خدمة عسكرية بالمعنى الحقيقي للكلمة! ومن هنا صار له اعتقاد بأن طعام الجيش لا يحل له، بل حتى الملابس العسكرية -التي تُعْطَى للجنود مجّاناً- لم يلبسها، وإنما اشترى بدلا منها ملابس عسكرية أخرى، من أحد العسكريين المستغنين عنها!

كان ثلج أنقرة تلك السنة كثيراً جدًّا، وعلى بياضه كان الفتى يتلقى تدريبه. وكان يُكَلَّفُ بالحراسة في ثغور الثكنة خلف الأسلاك الشائكة، وُقوفا في العراء فوق ركام الثلوج. وربما طال دوره في الحراسة بصورة

رهيبة، حتى إنه ربما استغرق ثماني ساعات على التوالي، وهو واقف تحت وابل الثلج وقصف الزمهرير. وكان ذلك كله خلال شهر رمضان. ورجل مثل فتح الله ما كان ليترك صومه ولا صلاته أبداً رغم أنه لم يكن يجد فرصة للإفطار أو السحور. وإنما كان يضع في جيبه قطعة بيسكويت، فتكون هي إفطاره أو سحوره. وربما صادف المغرب وقت اجتماع، فيراقب الفتى قائدَه لحظات؛حتى إذا صرف وجهه إلى غير جهته رمى قطعة صغيرة في فمه.

أما غرف النوم فلم تكن بها أسرة، وإنما كان يُعطى كل جندي بطانية واحدة، يفترشون طَرَفَها ويتدثرون بطرفها الثاني. وكان أغلبهم ينام بحذائه، لأنها الوسيلة الوحيدة لحماية قدميه من التجمد!

عندما كان الجنود يُساقون إلى الحمام لم يكن فتح الله يستحم معهم، وإنما كان يبلل شعره بالماء موهما المسؤولين أنه قد استحم. ذلك أن أغلب الجنود لم تكن لهم أخلاق التستّر ولا آداب الاستحمام. وعاد الفتى إلى عادته القديمة أيام طلب العلم بأرضروم، فكلما اضطُر للاغتسال دخل المرحاض، وصب الماء البارد على رأسه شيئا فشيئا، فلا يكاد ينتهي حتى يجد رجليه قد التزقتا بالجليد على الأرض!

كانت الحياة في البيئة العسكرية حياةً ملوثة بشتى ضروب الفتن والمحن، قلما استطاع أحد أن ينجو من فسادها وجبروتها.. لكن الله حفظ الفتى وأيده. فمرة كان هناك فحص طبي عام، وكان الجنود يؤمرون بالتعري من أجل الفحص؛ حتى إذا جاء دور فتح الله قال له الطبيب العسكري: "انزع سروالك!" فرد الفتى على الفور: "قائدي! منذ أن عقلت إلى هذه اللحظة ما اطلع أحد على ما فوق ركبتي، حتى أمي التي ولدتني!"

فنظر الطبيب إليه نظرة خاطفة وقال له بسرعة: "اِمْضِ!" فكانت كرامة عجيبة نجا بها فتح الله مما يكره، ونجا معها من مغبة العصيان العسكري، مع أن تصرفا مثل هذا يُعَدُّ -في العرف العسكري- مخالفة تستحق أقسى العقوبات، خاصة في تلك الظروف العصيبة من تاريخ تركيا!

انقلاب عسكري!

قال الراوي:

ما أن مر نحو شهر -أو يزيد قليلا- على انخراط الفتى في الخدمة العسكرية حتى وجد نفسه يدخل امتحاناً عسيراً وتجربة مهولة. ففي شهر ديسمبر ١٩٦١م حدث تمرد كبير في كل الثكنات والمدارس العسكرية بحي "مَمَاق" في العاصمة أنقرة أو بالأحرى قُلْ: حدث انقلاب عسكري، ومن حيث لا يدري وجد الشاب نفسه أحد الانقلابيين!

كان "طَلْعَت أَيْدَمِير" أحد المشاركين من قبل في انقلاب مايو ١٩٦٠م، ضد حكومة عَدْنَان مَنْدَرِيس، بل كان له دور حاسم في نجاح الانقلاب! فقد كان آنئذ قائد المدرسة الحربية العسكرية البرية. وطلابه هم الذين تدفقوا بأسلحتهم -مع طلاب عسكريين آخرين- إلى شوارع أنقرة، واحتلوا الإذاعة الرسمية، وحظروا التجول حتى أَمَّنوا نجاح الانقلاب!

لكن قادة الانقلاب اختلفوا بينهم، فيما يتعلق بمصير الحكم وبيد من يكون؟ فالأغلبية كانت ترى ضرورة تسليم الحكم للزعيم "عِصمت إينُونُو" رئيس "حزب الشعب الجمهوري" اليساري، وإعدام الرئيس الديموقراطي عدنان مندريس ورفاقه! بينما رأى الآخرون احتفاظ الجيش

بإدارة الدولة، وتأسيس حكومة عسكرية، ومن بين هؤلاء "طَلْعَت آيْدَمِير" وآخرون. وكانت الغلبة لأصحاب الرأي الأول ليقضي الله أمراً كان مفعولا! فَسُلِّمَت الدولة لحزب الشعب اليساري، وتم تنفيذ الإعدام البشع في حكومة الديموقراطيين بإحدى الجزر الصغيرة وسط البحر! ثم نُفي الضباط المعارضون إلى الخارج كممثلين عسكريين بالسفارات التركية. لكن القائد "طَلْعَت أَيْدَمِير" عُفي عنه ولم يتم نفيه. ورغم ذلك ظل يكتم غيظه إلى حين. وبعد مرور حوالي سنة على انقلاب ١٩٦٠م قرر الرجل الانقلاب على رفاقه!

والحقيقة أن "طَلْعَت أَيْدَمِير" كان رجلا خطيراً، ذا عقلية مُوسِيلِّينيّة مخيفة! والحلقة المقربة منه كانوا مثله تماما ضباطا ديكتاتوريين طغاة! أما حربهم على الدين وأهله فكانت رهيبة شرسة! ولم يعرف بشيء من الليونة منهم غير الضابط "آلْبْ آرْسْلانْ تُرْكَشْ" ذي النزعة القومية، الذي عارض حكم الإعدام بحق رجال الحكومة السابقة؛ فنال جزاءه نفيا إلى سفارة تركيا بـ"نُيُو دَلْهِي"!

والمقارن بين هؤلاء الضباط وبين حكومة "عصمت إينونو" يخرج بنتيجة واحدة، وهي أنه "ليس في القنافذ أملس!"

في سنة ١٩٦١م صار "طَلْعَت أَيْدَمِير" هو المسؤول الأعلى على الحي العسكري كله بحي "مَمَاق". فكل ثكناته وكل مدارسه وكل ضباطه السامين له تابعون. فكان تحت تصرفه نحو خمسة عشر ألف جندي وضابط، فقاد انقلابَه بهؤلاء جميعاً... ووجد فتح الله نفسه -في هذه اللحظة الخطيرة- وسط هذا الحشد العسكري المتمرد!

قبل الانقلاب العسكري بشهر بدأت الفترة التحضيرية؛ فأُعطي الجنود

رصاصا حقيقيا وذخيرة حية، وصاروا يهيَّؤون بصورة غير مباشرة للقتال!..

في الليلة الأخيرة لتنفيذ الانقلاب باتت الثكنة في هيجان كبير، وحالة استنفار قصوى! وخرجت فرق عسكرية مسلحة، فاحتلت مبنى الإذاعة الرسمية ليلاً! وما أن وصل خبر التمرد إلى الضباط الموالين للحكومة حتى تدخلوا بسرعة؛ فحدث صراع شديد بين جيشين! وصار مبنى الإذاعة بينهما كالأرجوحة؛ فتارة يسيطر عليه الانقلابيون فيبثّون خبر الانقلاب وسقوط حكومة عصمت أونونو؛ وتارة أخرى ينتزعه جيش الحكومة، فيذيع خبر فشل المتمردين، وإعلان أن العصاة قد قُضي عليهم تماماً! كانت كتائب أخرى مع الحكومة، كما كانت قاعدة الطيران ضد الانقلاب أيضا! والجنود بثكنات حيّ مَمَاق العسكري لا علم لهم بحقيقة الأمر، وإنما هم ينفذون أوامر قادتهم؛ ظنا منهم أن هذا الانقلاب هو إجماع عسكري! فجعلت الطائرات الحربية تحلق فوق رؤوس الجنود، متنقلة من ثكنة إلى أخرى على هيأة قتالية! فَعَلِمَ القادةُ الميدانيون داخل الثكنات أن قيادة القاعدة الجوية تهدد بتدمير حيّ مَمَاقْ العسكري برمته، ومحو معالم ثكناته من على وجه الأرض! فما كان منهم إلا أن استسلموا بكل جنودهم وقواتهم للجيش الآخر!

وكانت ليلة رهيبة! ما رأى فتح الله مثلها قط في حياته!

وما أن ذَرَّ ضوءُ الصباح حتى دخل ثكنةَ الفتى ضباطٌ كبار، فأمروا بجمع عام، وطلبوا من كل الجنود نزع الجهازي الميكانيكي لأسلحتهم وتسليمه! فنفذوا الأمر على الفور، وما بقي لدى كل واحد منهم سوى أنبوبة حديدية فارغة! ثم أصدر القادة بعد ذلك قرارا بمنع الجنود من أي مهمة أو تدريب خارج الثكنات العسكرية لمدة شهرين! ثم أشغلوهم

بالتعليم العسكري الأساسي والتدريب على التخابر. فصار للجنود بسبب ذلك وقت فراغ طويل. فانتهز فتح الله هذه الفرصة الثمينة ودخل في دورة روحية جديدة. فجعل يختلي بمسجد الثكنة في ليالي الشتاء الطويلة، متفرغا للعبادة والمناجاة؛ حتى شعر بأن عمرانه الروحي قد تجدد تماما!

في أحد الأيام أمر الضباط باجتماع عام مرة أخرى، فلما حضر الجنود قالوا لهم: عندنا لكم اليومَ بشرى! فجعلت أعناق الجنود تشرئب لسماع الخبر السعيد. فلما أخبروا بأن أجهزة أسلحتهم الميكانيكية سترد إليهم صُدِمُوا! فما كان ذلك بالخبر السَّارِّ لهم! فعلاوة على ما كانوا يعانونه من تنظيفها كل صباح؛ فقد صار السلاح علامة شؤم بأيدي جنود يرون أن مصيرهم معلق بأوامر ضباط الانقلابات!

مهمة جديدة

تنفس الراوي الصعداء، ثم نظر إلى الأفق البعيد فقال:

التقاط الإشارات في العمل العسكري، ليس كل الناس يحسنه.. لكن لفتح الله معه قصة أخرى..! فقد كانت معرفته بقراءة إشارات الروح سبباً في إتقانه لقراءة شفرات الاتصال اللاسلكي في المجال العسكري بما بهر قادته في الميدان وحيرهم! وما أَمْرُ شفرة الصوت إلى شفرة النور إلا كقطرة في بحر، أو خطرة في دهر..! وليس غريباً أن يسبق البرقُ رعدتَه إلى كشف أسرار السماء! ولكن المبصرين وحدهم يقرؤون إشارات البروق في زمن العقوق!

قال راوي الأشجان:

بعد مضي أربعة أشهر من التدريب العام، عُين الجندي فتح الله في قسم "الاتصالات السريعة" بعد نجاحه في امتحان أُجري على الجنود! ومن ثَمَّ دخل في تدريب آخر لمدة أربعة أشهر جديدة. فتعلم الضرب على الآلة الكاتبة بعشرة أصابع. كما تدرب على "لغة مُورْس" الإشارية، والنقر على آلتها الصوتية، فسجل فيها تقدما كبيراً إلى درجة المهارة! حتى إنه كان أسرع من الجنود الذين كانوا يمتهنون استعمالها -خلال وظائف التلغراف والبريد السريع- قبل انخراطهم العسكري! فرغم أنه لم يكن يحسن النقر بأصابعه على الآلة مثلهم؛ إلا أنه كان أسرعهم التقاطا للشفرات؛ فيسبقهم في ترجمة رموزها إلى اللغة الطبيعية. ذلك أنه وإن كان بطيء الإرسال نسبيا بسبب ثقل حركة رسغه وأصابعه؛ فإنه كان سريع التلقي للرموز الصوتية، فلا يضيع منه شيء البتة! وذلك بسبب حيويته الذهنية العالية، وقوة ذاكرته الصوتية؛ بما جعله يترجم معاني الشفرات بدقة متناهية، دون خلل أو كلل، إلى درجة أنه كان يكتب خمسمائة حرف خلال ثلاث دقائق! ولِمَ لا؟ فقد كان فتح الله قبل ذلك قوي الالتقاط لإشارات الغيب، سريع القراءة لشفرات الروح؛ فكيف يتأخر بعدها في قراءة نقرات صوتية، تُلقى إليه من العالم المحسوس؟

صحيح أن مهمة الإرسال الشفري أمر أساسي وخطير؛ لكن مهمة التلقي والترجمة السريعة للشفرات الصوتية أخطر! لأن ضياع صوت واحد معناه ضياع خبر بأكمله، أو تحريف حقيقته وعكس معناه! وهو أمر في المنطق العسكري قد يؤدي إلى كارثة! والجندي فتح الله قد حقق في الالتقاط والترجمة الفورية مهارة غير مسبوقة! ومن ثم قرر قادته الاحتفاظ به في قسم الاتصال السريع، حتى نهاية مدة تدريبه الثانية!

ذكرياتٌ أليمة..!

لاحظ الراوي تباشير السرور ترتسم على وجهي؛ فبادر إلى القول بنبرة حزينة:

ورغم هذا وذاك فقد حَفَرَتْ أيامُ الجندية بأنقرة ذكرياتٍ بئيسةً في ذاكرة الفتى! فخلال ثمانية أشهر قضاها بثكنات حي مماق الرهيب ذاق فتح الله شتى أنواع الأذى والإهانات! فكم مرة تعرض للضرب المبرح بسبب انفلاته ليتوضأ في بضع دقائق، وحيث كانت أغلب الاجتماعات العسكرية متداخلة مع مواقيت الصلاة. وما كان يصلي الصلوات الخمس بتلك الثكنة سوى شخصين اثنين فقط: فتح الله، وشاب آخر من شرق الأناضول! كان فتح الله يتسلل إلى قاعة الصلاة فيسابق الاجتماع بأداء صلاته، حتى إذا تأخر بدقيقة أو دقيقتين ضربوه على يديه حتى لتكادان تنفجران دما وأسمعوه من الشتائم وسب دينه وسائر المقدسات الإسلامية ما تقشعر له الأبدان! ومع ذلك فلم يكن له من حيلة إلا الصبر والاحتساب!

وهنا اغرورقت مُقْلَتَا صاحبي بالدموع فصمتَ.. فما تمالكتُ حتى قلت:

- أَوَ قد ضربوا فتح الله؟

قال لي:

- إنما قَدَرُ الأبدال يا صاحبي أن يسيروا على مسلك الأنبياء، يحملون هذه الرسالة فيكابدون ويجاهدون.. وإنما هم بشر فينزل بهم من البلاء ما تقشعر له الأبدان!.. وكم من نبي ضُرِبَ! وكم من نبي قُتِلَ!.. ولو ضُرِبَ فتحُ الله ألف مرة لكان أهونَ عليه من سب دينه ونبيه!

- ولماذا لم يفر من التجنيد؟

- فتح الله لا يفر!.. ولو فَرَّ لقبضوا عليه؛ ولجددوا عليه مدة الخدمة من بدايتها! ولكن مثله لا يفر، بل هو يدرك جيدا أن هذه بيئة لا بد له من معرفتها معاينةً.. لا بد أن يعيش حياة المستضعفين، ويذوق مرارة الظلم والطغيان ليعرف كيف يرسم مسلك النور للطيور المهاجرة في عالم الظلام!

وكم مرة أصدر الضباط قراراً بمنع الجنود من التمتع بعطلة آخر الأسبوع، فيظلون مسجونين داخل ثكناتهم لعدة أسابيع! لكن الفتى كانت تضيق نفسه، فيشتاق إلى تنفس الحياة الإيمانية الحرة في المجتمع المدني؛ ومن ثَمَّ ربما تسلل مع المتسللين خارج الثكنة لزيارة أخ له في الله، مثل صديقه "صالح أوزجان" أو غيره، أو للصلاة بمسجد المدينة!

وأمسك الراوي نفساً عميقا جدا، ثم أرسله عبر زفير طويل، ثم قال:

في يوم من الأيام كان مع بضعة جنود متدينين يسيرون في الشارع مع إمام المسجد، ففاجأتهم الشرطة العسكرية! فانقض أحدهم على الإمام وضربه بلكمة قوية خر على إثرها على الأرض، وربطوا الجنودَ بالقيود الحديدية بعضهم إلى بعض، ثم ساقوهم إلى مركز الاعتقال! هناك بمركز الشرطة العسكرية وضعوا أمام الجنود المعتقلين قدوراً وأواني قديمة، قد علتها طبقات متراكمة من الأوساخ، فطُلب منهم غسلها! وشرع المساكين في تنفيذ الأمر العقابي! أما فتح الله فنظراً لطبيعته الجدّية في كل شيء، ورغم أن الأمر الموجه إليه كان ضربا من العقاب ليس إلا، غير أنه جعل يغسل الأواني المقدمة إليه بكل تفان وإخلاص، حتى نظفها تماما، مما لفت انتباه الشاويش المسؤول، فعمل على إطلاق سراحه. وشطبوا على اسمه

من لائحة المعتقلين، بينما أرسل اسم كل جندي إلى كتيبته الخاصة لتتم عقوبته هناك... ونجا فتح الله من إهانات أخرى ربما كانت أقسى وأشد!

تلك كانت هي حياة الجندية بأنقرة، ذكريات من المآسي والأحزان!

الرحيل إلى إسكندرون

الهجرة هي قَدَرُ فتح الله الأبدي.. ولذلك فما كان لهذا القدر أن يفارقه حتى في خدمته العسكرية. فالهجرة هي مسلكه، والهجرة هي خلوته وجلوته، وهي طريقه نحو المستقبل البعيد.. كان فتح الله يرى أسراب الطيور المهاجرة متجمهرة على أبراج المدائن وحصونها، تنتظر منه إشارة لتحديد الاتجاه كي تنشر أجنحتها في الريح، وتنطلق إلى أرض الظلمات، تحمل في مناقرها الصغيرة بذور النور..!

بعد نهاية ثمانية أشهر من التدريب الشاق رشح الجندي فتح الله للتعيين خارج أنقرة. وكانت التعيينات تتم عادة بالقرعة! فأخذ الفتى سهما فطلع اسم مدينة أرضروم! فبادره الضابط قائلا: "كلا يا إمام! أنت من أرضروم وما ينبغي أن تكون خدمتك العسكرية بها! فخذ سهما آخر!" وأخذ الفتى سهما جديدا فأعطاه للضابط فإذا هي أرضروم مرة أخرى! فأبطلوها من جديد! ثم أخذ سهما ثالثا فإذا هي "دِيَارُ بَكْر"! فقال الضابط: " كلا! لا نظلمك، فخذ سهما رابعا!".. كانت "دِيَارُ بَكْر" مدينة تقع في أقاصي شرق بلاد الأناضول، ذات طبيعة جبلية قاسية، إضافة إلى أنها موطن للاقتتال من حين لآخر بسبب التعدد العرقي لسكانها ما بين عرب وتركمان وأكراد! وكانت ظروفها المعيشية آنذاك صعبة جدا، ولذلك

كان الموظفون عموما يعتبرونها كمنفى! فلما سلَّم فتح الله السهم الرابع للضابط وقع على مدينة "إِسْكَنْدَرُون"، فصفق الضباط مهنئين! ثم قال له أحدهم: "ما أسعدك يا فتى!".. ذلك أن إِسْكَنْدَرُون مدينة على شاطئ البحر الأبيض، في الوسط الجنوبي من بلاد الأناضول، تمتد على حدود سوريا، تهب عليها رياح حارة تارة، ورياح رطبة عليلة تارة أخرى، ذات طبيعة جميلة، تمتاز ببساتينها ومياهها الغزيرة، وآثارها التاريخية الضاربة في القدم، بعضها من عهد الرومان وبعضها من العصر العباسي؛ ومن ثم كانت مقصدا للسياح من كل العالم. لكن تهنئة الضابط للفتى إنما كانت بسبب تفتح المدينة الهاتك لحجاب الحياء، ككثير من المدن السياحية في العالم! وذلك هو ما أحزن الإمام، فانصرف كاسف القلب جريح الروح!

ودخل فتح الله المدينة بعد رحلة طويلة جدا، فسلم نفسه لثكنتها العسكرية، وفي ذهنه مخاوف من مواجهة ابتلاءات يُوسُفيّة مرة أخرى، على غرار فتن مدينة أَدِرْنَه. لكنه ما أن خالط بعض الجنود بالثكنة حتى علم أن سكان الحي المجاور للثكنة هم أهل دين وصلاح في الغالب؛ فانقلب حزنه فرحا، وتحولت مخاوفه سكينة وطمأنينة أملاً في وجود صالحين يشاركونه مواجيده الروحية. ثم كانت السعادة أتم وأكمل عندما اكتشف أن الوضع العسكري بهذه المدينة يختلف كثيراً عنه في أنقرة، فهو ههنا إلى المعاملة الطيبة أقرب!

خلال الشهرين الأولين عومل من طرف الضباط كأي جندي عاد، يكلف بالحراسة وبسائر الأعمال العادية، رغم أنه عين بثكنة إسكندرون بدرجة "شاويش" يتحكم في عشرة جنود لكنه لما أسندت إليه تلك المهمة -فيما بعد- فشل فيها فشلا ذريعاً بسبب أن أسلوب التحكم العسكري

مبني على ثقافة السب والشتم؛ بينما هو لم يعرف إلى تلك اللغة سبيلاً.. وإنما كانت طريقته مبنية على توجيه الضمائر، وتربية القلوب، والعسكر لم يتربوا على هذا المنهاج إطلاقا! وإخضاعهم إلى سلطان الروح يتطلب صحبة طويلة، تستغرق أشهراً كثيرة أو ربما سنوات!.. ولذلك لم يستطع فتح الله أن يجعل الجنديَ التابع له منضبطا انضباطا عسكريا صارما؛ يقف بين يديه مُمْتَثِلاً بالتحية العسكرية، إما متلقيا أمره اليومي للتنفيذ، وإما ملقيا تقارير ما توصل إليه من نتائج في عمله! وقد كان أدبه الجم يمنعه من انتهار المخالفين من الجنود بَلْهَ عقوبتهم! فما أن لاحظ قادته ذلك حتى تعجبوا من أمره واستغربوه بسبب ما اعتادوه في الجيش -وخارج الجيش- من حب الإنسان للسلطة والتسلط. فكان ذلك الوضع سببا في مراعاة طبعه من قِبَلِهِمْ، وإظهار الإشفاق عليه نسبيا، وعدم إحراجه كثيراً.

نافذة من نوع آخر

كان فتح الله مولعا بالخلوة، فكلما سنحت له الفرصة اختلى بنفسه، ودخل معراجه الروحي فرداً!.. لم تزل أيام النافذة بأَدِرْنَه تغذي وجدانه بوقود الشوق إلى منازل الكشوفات والمشاهدات!.. وما كان يظن أنه سيجد في ثكنات الجيش صومعةً أخرى يتفرغ فيها لتأملاته ورياضته الروحية والفكرية؛ إلا أن المفاجأة العظيمة عنده هذه المرة كانت هي تكليفه بالعمل داخل سيارة عسكرية، وضعت داخل الثكنة كمحطة ثابتة؛ لالتقاط الاتصالات اللاسلكية. فكانت له معها قصة أخرى..

الضابط "عارف" كان هو الرئيس المباشر لفرقة فتح الله، كان برتبة "قائد

شاويش"، وكان يعطف على الفتى كثيراً، ولذلك أقاله من كثير من التكاليف الشاقة والمحرجة. ووظفه في قسم التخابر اللاسلكي، ثم خصص له سيارة عسكرية مجهزة بأحدث أدوات الاتصال. كانت السيارة من السعة بحيث تستوعب -إضافة إلى آلاتها- سريراً. ولذلك اتخذها فتح الله مسكنا خاصا؛ فيها يعمل، وفيها يأكل، وفيها ينام؛ بل استطاع أن يحصل على كانون غازي يسلق عليه البطاطيس ثم يخفيه في مكان آخر، ويشتري الخبز والزيتون من الخارج فيأكله داخل السيارة. لكن الأهم عنده من هذا وذاك جميعا هو أنه استطاع أن يتخذ السيارة صومعة خاصة لخلوته!

ذلك أنه بسبب تكليفه بمهمة الاتصال اللاسلكي أُعفي من الحراسة ومن حضور الاجتماعات. فكانت تلك فرصة أغلى عنده من الذهب، حيث استطاع أن يجدد صلته بخلوته الروحية، ويستأنف علاقته بالكتب والمطالعة؛ وهناك قرأ عدداً كبيراً من الكتب، في مختلف التخصصات، من الأدب إلى التاريخ إلى الفلسفة. فكانت تلك فرصته للاطلاع على الفلسفة الغربية بشكل عميق.

مرة عثر أحد الضباط المسؤولين على كتبه مخبأة داخل سيارة الاتصال، فجعل ينظر في عناوينها، فوجد أغلبها في الفسلفة والأدب، فقال له: "أحسنت! هكذا ينبغي للشباب أن ينفتحوا على الثقافة العالمية!" وإنما كان الضابط يخشى أن يكون الفتى الإمام معتكفا على قراءة الكتب الدينية. لكن فتح الله كان أذكى من أن يصحب معه إلى الثكنة كتابا دينيا! فقد كان خبيراً بأن لكل مقام مقالا ولكل خلوة معراجاً!

كانت أجهزة السيارة قوية الالتقاط؛ فكان يلتقط جميع إذاعات العالم، ويتمكن من الاستماع خُفْيَةً إلى أجود التلاوات القرآنية، المبثوثة عبر

إذاعات بعض الدول الإسلامية. وإلى جانب سيارته كانت تقف سيارة عسكرية أخرى لنفس الغرض، ومن حسن حظه أن زميله بها كان جنديا متدينا أيضا. فكان الرجلان يتعاونان على البر والكتمان!

كان فتح الله يعشق القراءة إلى حد الجنون! كان الكتاب هو جامعته العالمية التي تخرج منها.. ولأنه لم يخضع في حياته لتوجيه مدرسي محدود؛ فقد كانت مقروءاته من كل الآفاق.. كان الناس يطالعون الكتب، لكن فتح الله كان يقضمها قضما. ولقد تخرج من مدارج المكتبة إماماً عالماً، ومفكراً، وأديباً، وشاعراً كبيراً.. ولقد ساعدته الخلوات التي أتيحت له في حياته -اختياراً أو جبراً- على السفر البعيد عبر معارج الكتاب، والضرب إلى أزمنة شتى، وحضور مجالس العلماء والفقهاء، وكبار المجددين عبر التاريخ، والإنصات إلى دروس الحكماء، والمتصوفة، والفلاسفة، والمتأدبين، ليالي طويلة! فكان يَرِدُ من كل مشرب ما يناسب طبعه، ويلبي حاجته، ويستجيب لمطالب عصره وزمانه، حتى عاد من خلواته وقد خبر الحياةَ ومسالكها جميعاً، ودخل معتركَ التدافع الحضاري بأسلحة لا قِبَلَ لأطر الجامعات بها، ولا للقيادات الاجتماعية والفكرية، لا ولا لرجال السياسة والإعلام، وبَزَّ فتحُ الله أصحابَ الشهادات بما تحقق به من مشاهدات!

العسكري الواعظ!

بدأ فتح الله يتعرف -خلال العطل الأسبوعية- على أهالي مدينة إِسْكَنْدَرُون، ويقترب منهم شيئا فشيئا؛ حتى توثقت صلته ببعضهم، واكتشفوا موهبته الوعظية؛ فطلبوا منه القيام بالوعظ خلال أيام الْجُمَعِ،

بالمسجد المركزي للمدينة على اعتبار أنما هو شخص مدني، لا عسكري. ورغم أنه يعلم أن هذا الأمر من المستحيلات السبع بالنسبة لجندي في الجيش، خاصة في تلك المرحلة التاريخية العصيبة، إلا أنه سرعان ما استجاب لهذا الطلب الذي يغذي مواجيد الروح فيه... فلطالما صار الشوق إلى المساجد وإلى مجالس الوعظ يلتهب بين جوانحه الحرَّى، ويسوقه سوقا إلى رياضها العامرة!

وغامر الجنديُّ الإمامُ فوعظ بمسجد إسكندرون عدة مرات متخفيا في زيه المدني!.. ومن ذا قدير على كبح الفرس الجموح إذا تفلت من عقاله؟

ثم غامر فتح الله ثانية فبادر بجرأة عجيبة إلى اتخاذ مسجد للجنود داخل الثكنة العسكرية، إذ عمد إلى ساحة صغيرة هناك، ففرشها بالرمل، ثم زرع حولها بعض الأعشاب على هيئة الحدود أو الجدار، مستعينا ببعض الجنود الصالحين، وكانوا من الندرة بمكان.. ثم صلى فتح الله هناك إماما بستة أشخاص أو سبعة فقط. ثم بدأ العدد يتكاثر حتى بلغ عدد المصلين ثلاثين. بعض الذين لم يصلوا في حياتهم قط بدأوا الصلاة هناك. كانت الفرقة العسكرية تتكون من مائتي جندي، فكان عدد الثلاثين مصليا بالنسبة لتلك الظروف رقما كبيراً جدّاً. كانوا يصلون في الساحة أمام الأنظار، فكان مشهدهم ينبض بالجلال والجمال... ذات جمعة يتيمة صلى بهم فتح الله الفريضةَ في الثكنة، بالقاعة المخصصة للعرض السنمائي، لكن الضباط المعادين للدين وأهله لم يطيقوا ذلك كله؛ فعمدوا إلى الساحة التي اتخذت مسجداً، فغرسوها بالأزهار جميعاً، وحولوها إلى حديقة!

إجازة مفاجئة

لم يستطع الفتى أن يتحمل هزال الطعام الذي حمل نفسه عليه بالثكنة تورعا من طعام الجيش. فمرض للمرة الثانية بسبب سوء التغذية، وبدأ الإرهاق يلاحقه حتى إنه لم يعد قادرا على التماسك واقفا إلا قليلا. وصار كل من يراه يقول له: "إن عينيك قد أصابهما مرض الصفراء!" فلما زار الطبيب العسكري رده بلا علاج، وقال له: "ما بك من شيء!" لكن لم تكد تمضي بضعة أيام حتى اصفر جسمه كله، ومن ثم قصد الطبيب للمرة الثانية، فلما رآه اندهش وقال" "هذا مرض خطير!" فأرسله على التو إلى المستشفى. وهناك قضى عدة أيام تحت المراقبة والعلاج. وبعد مضي ثلاثة أشهر أعطاه الطبيب رخصة استراحة، يقضيها ببيته في أرضروم طلبا للاسترواح من وطأة المرض. فغمره من رَوْحِ السرور ما أنساه الآلام والأسقام، فقد مضى على تاريخ مغادرته أهله ومدينته نحو أربع سنوات، قضاها ما بين أدرنه والانخراط العسكري. وبشكل مفاجئ وجد فتح الله نفسه يعود إلى أرضروم.

المسيح الصامت!

ولقد حدثني راوي الأشجان حديثاً عجباً! قال لي:

عندما كان القطار يغادر محطة إسكندرون، كان الفتى يعيش في برزخ ما بين أشواق الوصول إلى الأحبة، وما بين أحزان الفراق الطويل، وما أحدثته من مواجع في قلبه، وفي قلوب والديه وإخوته جميعا. فالله وحده كان يعلم بأي ضماد من الآهات والزفرات، كانت والدته تداوي كبدها

المكلوم بفراق ابنها الحبيب، حتى إذا غلبها الحنين فبكت أنكأت جراح الإشفاق لدى جميع أفراد الأسرة الصغيرة!

كان فتح الله هو واسطة العقد في حلقة إخوته، وكان ارتباطهم به -أو قُلْ ارتباطه بهم- كارتباط الروح بالجسد تماماً! ذلك أن العلاقة التي كانت تربط الفتى بإخوته لم تكن مجرد علاقة رحم، يرعونها بالتوقير والتقدير، أو بحقوق وواجبات؛ بل كان بين كل أفراد الأسرة شيء أعمق بكثير.. فالشعور الوجداني كان بينهم جميعا مشتركا عبر منازل القبض والبسط، ومقامات الحزن والاغتراب! كان إخوة الفتى يشكلون برموز أسمائهم، وسيماء أحوالهم، نبضاً واحداً، ونَفَساً واحداً، فما يشعر به هذا يخفق به قلب ذاك! وكأن الشيخ رامز أفندي كان يجعل من أسماء أبنائه مدارج يسلك عبرها إلى الله! فرزقه الله ذرية لا تتغذى إلا من رحيق الروح، ولا تشرب إلا من كوثر المحبة... قُوتُهَا الزهدُ، ولباسُها التقوى... كانت "نور الحياة" هي الأخت الكبرى في الأسرة، ثم "فضيلة"، ثم "فتح الله"، ثم "صبغة الله"، ثم "المسيح"، ثم "فقير الله"، ثم "حسبي"، ثم "صالح"، ثم "فضيلة" -بعد وفاة فضيلة الأولى- ثم "نظام الدين"، ثم "قطب الدين" وهو آخر العنقود!

ولو يغوص المرء في سيمياء هذه الأسماء الروحانية الكريمة، متذوقا لحقائقها، كاشفا لآلامها وآمالها، في زمن كزمانها، لوجد نفسه -من حيث لا يدري- يتدرج بمقامات الأشجان!

توفيت "فضيلة" الأولى في سن مبكر، وتوفي "فقير الله" و"نظام الدين" في طفولتهما. وعاش الباقون ما شاء الله.

عندما كان يموت واحد من الإخوة الصغار، كان الباقون يشعرون وكأن قلوبهم قد غادرت صدورهم! فلا يكادون يشعرون بنبض الحياة من

جديد إلا بعد شهور! ويذكر فتح الله عندما مات أخوه الصغير، كيف كان يأتي قبره -وهو لما يزل في طفولته- ويرفع يديه إلى السماء داعيا: "رب أَمِتْني حتى أرى أخي!"

ويكبر الإخوة من آل كولن فيكبر فيهم هذا الروح العجيب، حتى إذا غادر فتح الله أرضروم، ضاربا في الأرض بعيدا شعر الإخوة بأن الفراق هذه المرة له معنى آخر، فحتى لو جاء مرة أخرى أرضروم، فإن الحقيقة القاسية أن فتح الله خرج ولن يعود أبداً! أما "المسيح" فقد كانت له أحوال أخرى، فبمجرد ما غاب أخوه في معراج السياحة حتى انجذبت روحه بقوة إلى مقام الصمت، ووجد نفسه هو أيضا في سفر دائم، لكن في أحوال روحية تلتهب بألم الفراق، كانت فوق طاقته وقوة وجدانه، حاول أن يعبر عنها بالكلام أو البكاء، لكن ما أن تدفقت حممها على حلقه ولسانه حتى شعر بالاحتراق، فانعقد اللسان وفقد الطفل قدرته على الكلام! كان يسمع ويرى، لكنه لا ينْبس ببنت شفة! حال غريبة لم ينفع فيها علاج ولا طبيب! ثم بقي منزويا في خلوة صمته طيلة أربع سنوات! كانت هي مدة غياب فتح الله عن أرضروم، في المرحلة الأولى من سفره الأبدي! ولذلك لم تزل الأسرة كلها تنتظر وصول قميص يوسف... وفعلا، ما أن طرق الفتى باب البيت حتى تكلم المسيح!

* * *

كان منزل الأسرة في أرضروم قد اتخذ بابه على ركن من زقاق مسدود. فبمجرد ما ولجه فتح الله بزيه العسكري حتى جعل الأطفال يهتفون: "جاء العسكر! جاء العسكر!" وطرق الفتى الباب.. فكان الذي يفتحه هو أعز الناس إليه: أمه!.. والدة أشواقه وأحلامه!

لكن رفيعة هانم توقفت مندهشة، وكأنها تهم بالتراجع أو كأنها تهم بإغلاق الباب! لكنها سرعان ما شمت رائحة ولدها الحبيب، واسترجعت صورته الطفولية قبل أربعة أعوام، فصرخت: "أحَقًّا أنت فتح الله؟ نعم إنك لأنت فتح الله!"

وهبّت عاصفةٌ مطيرةٌ على بساتين المدينة!.. كانت البروق تضرب أكباد الأشجار بوميض لاهب، وكانت الأمطار تسح على الأوراق بوابل شديد من نشيج الفراق! كل الأطيار الآن تبكي وَلَهاً في أعشاشها الصغيرة، وللرعود من حين لآخر قصف رهيب على حصون الصدور! فيا نوارس اخرسي، ويا خمائل اشهدي! فقد ارتمت الأم على ولدها معانقة وهي تجهش ببكاء عميق! وبكى فتح الله لبكاء والدته شفقاً.. ولم يزل يومُهما ذاك بكاءً لا تكاد تجف مآقيه!

كانت فترة ما بين خروجه من البيت -قبل أربع سنوات- إلى لحظة عودته هذه؛ هي فترة فَوَرَانه الفزْيولوجي؛ فتغيرت صورة هيأته وكثير من ملامحه، ولذلك لم تتعرف عليه أمه للوهلة الأولى، خاصة وأنه جاء في وقت غير متوقع، وبزيّ عسكري ما اعتادت أن تراه فيه. وكما أن أمه قد وجدت في هيأته تغيراً كبيراً؛ فإنه هو أيضا قد لاحظ نفس الأمر في إخوته جميعاً. وتبادل الفتيان نظرات يملؤها الرهب من عجلة الزمان!

الواعظ والسينما

واستأنف الراوي حكايته الشجية قال:

ثم انخرط فتح الله في الحياة الاجتماعية والدينية لأرضروم بسرعة،

فجعل يتنقل بين مدارسها العتيقة ومساجدها العامرة، يزور شيوخه وأصدقاءه، ويجدد الصلة بطلاب النور، ويسعى ليرتاع بمجالس الذكر هنا وهناك. حتى إذا انتهت الأشهر الثلاثة ذهب إلى الإدارة العسكرية بأرضروم، فلما علم المسؤولون سبب رخصته زادوه شهراً كاملاً! وحل شهر رمضان وسط إجازته، فاستفاد من روحه جمالا بهيجا ما كان ليجده في غربته بإسكندرون قطعاً.

كان شهر الصيام مناسبة ليستأنف فتح الله إلقاء دروس الوعظ بالمساجد. ولم تَخْلُ مواعظه -في تلك المرحلة- من مفاجآت ومغامرات! ففي تلك الأيام المباركة أُخبر الواعظ فتح الله أن فيلما سيعرض بدار السينما، تدور قصته حول حوادث بدء الإسلام، يظهر فيه الصحابة الكرام ممثَّلين، وكذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين. وكان إشهاره قد بدأ قبل العرض بأسبوع، فاشترى الناس تذاكرهم مبكرين! لكن فتح الله انتقد الفيلم بشدة في مواعظه! فقد كان يعلم أن السيناريو لن يهدف -في تلك المرحلة خاصة- إلى خدمة الدين، بل سيهزأ بالعقائد، ويعطي تفسيراً ماديا لحوادث السيرة، وينزع عنها روحانيتها وقدسيتها! ولو كان فيلما إيجابيا حقا لَمَا سُمِحَ له بالتداول داخل دور السينما بتركيا يومئذ! لكن فتح الله كان يقتصر على بيان بعض الحق، فيقول للناس: "الأشياء إنما يُمَثَّلُ لها بمثلها! فكيف لشخص لا يحترم الدين أن يمثل صحابيا جليلا؟! وكيف يمكن لممثّلة ساقطة، لا دين لها ولا خُلُق أن تمثل شخص السيدة عائشة التي هي أم المؤمنين؟".

كانت انتقاداته للفيلم محدودة وهادئة محاولا تثبيط الناس عن مشاهدته، إلا أنه ما أن حل اليوم الذي سيعرض فيه حتى هاجت مشاعره.

وكان موعد موعظته يومئذ بُعَيْدَ العصر. فتفجر قلب الواعظ بحمم من الأسى والأسف ناعيا على الناس تخاذلهم عن منع هذا المنكر البغيض! فصرخ في الناس وهو يجهش بالبكاء: "الويل لكم أيها الناس! ألا ترون أن هؤلاء سيسخرون الليلة بدينكم وبنبيّكم؟ إنهم يؤذون أرواح سادتنا وأجدادنا الكرام! فكيف تجلسون بين يديّ هكذا مستسلمين؟ أين عزتكم؟ أين إسلامكم؟" وما كان قصده آنئذ تهييج الناس، وإنما كان يريد إيقاظ شعورهم النقدي كي يتدخلوا لدى السلطات المحلية لمنع عرض الفيلم. لكن كلماته كانت على غير وزان قصده، فهاج المصلّون وتدفقوا إلى الشارع يصرخون ويتوعدون! حاول جهده أن يثني الناس عن التصرف بهذه الطريقة، لكن كل محاولاته باءت بالفشل، فقد تدفق السيل بقوة، وأَمَدَّتْهُ روافد من هنا وهناك! وجعل بعض الناس يشرح لبعض حقيقة الفيلم، ومغزى السيناريو، وشاع الخبر في كل أرضروم! وما هي إلا لحظات حتى حاصر دارَ السينما جمهورٌ غفير..!

حتى "فُؤَادُ الدَّمَوِيّ" كان هناك، لقد كان شخصا دمويا حقا كما وصفوه، لا صلة له بالدين وأهله، وإنما هو شاب متمرد عربيد، ذو بنية رهيبة ومزاج عصبي، لا يفتأ يصارع هذا أو يقاتل ذاك، حتى اشتهر أنه ما ضرب أحدا قط إلا أدماه! ولذلك لقَّبوه بـ"الدَّمَوِيّ"! إلا أنه وإن كان عاجزا عن الالتزام بالدين وحدوده؛ فقد كان يحترم قيمه ويوقر المتدينين!

وهاجم الغاضبون دار السينما، فعطلوا آلة تشغيل الفيلم! كان صاحب السينما خائفا فزعا، فلما وقع بصره على فؤاد الدَّمَوِي يتحرك وسط الناس فرح واستبشر؛ ذلك أنه كان يشرب الخمر عنده هناك من حين لآخر.. اقترب منه الرجل على الفور، ثم جعل يحدثه بصيغة المتألم المشتكي،

فقال له: "يقولون إن هُوجَا فتح الله قد انتقد الفلم، لكن الفلم ما به من بأس، فقد أجازه مفتي المدينة الإمام "ثاقب أفندي". ولم يكد الرجل يتم كلامه حتى انتفض فؤاد الدموي صارخا: "وتقول إن هُوجَا فتح الله قد انتقده؟ إذن فهو فيلم شرير قطعاً!" ثم انقضَّ عليه بكلتا يديه، وانهال عليه ضرباً حتى أدماه!

وشهد فتح الله أن سلطان كلمات الله أقوى من سلطان الصورة!

حكاية المسيح الدجال!

قال الراوي:

خلال هذه الفترة من شهر رمضان أعلن الفتى الإمام في المسجد أنه سيلقي درسا حول "الدجال"! كان اسم الدجال ساعتها مقلقا للسلطات. لكن الفتى الواعظ أخر الدرس إلى أواخر أيام رمضان؛ خشية أن يعتقل فيحرم من إلقاء الدروس. فإذا كان لا بد من الاعتقال فليكن آخر رمضان لا أوله.

وعند حلول موعد الدرس الموعود كان المسجد غاصا بالناس. الكل يريد أن يسمع درس الدجال. كان الانتباه شديدا، وكانت الرؤوس مشرئبّة إلى أعلى، تجاه كرسي الوعظ، والعيون كلها متفتحة يقظة، تحدق في وجه الواعظ الشاب!

"وحيدُ الدين بَكْ" كان كعادته في الصف الأمامي.. كان رجلا غريبا ذا أحوال ومواجيد ملتهبة! بمجرد ما يشرع الواعظ في إلقاء كلماته ينخرط هو في بكاء عميق! كان نشيجه يشتد أحيانا حتى يملأ صدى شهيقه فضاء

المسجد! وكان الفتى في درسه يتأثر به جدا، فيزيد حماسه.. فقد كان نشيجه الجارف بالنسبة إليه مدداً معنويا، ومصدر إلهام عظيم! وتكلم الفتى عن الدجال، وكانت المخابرات حاضرة هناك إلى جانب كرسي الوعظ تسجل كل شيء! ولكن لم يحدث ساعتها شيء..

ثم جاء فتح الله لإلقاء الدرس الأخير في خاتمة رمضان، واختار له موضوع الخطبة الأخيرة للنبي ﷺ من حجة الوداع.. ورفع صوته في آخره بكلمات الرسول ﷺ: "أَلاَ هَلْ بلغتُ؟ اللهم فاشْهَدْ!" ووجهها إلى الجمهور مرة أخرى، لكن عن نفسه؛ فقام الرجل البَكَّاءُ: وحيد الدين بَكْ، ورفع صوته وسط الجمهور مجيبا: "نُشهد الله تعالى أن قد أدَّيتَ ووفيت!" كانت كلماته أصدق وأعمق من أن يطيقها وجدان فتح الله، فأجهش بالبكاء!

وعلم الفتى أن قوات الأمن خارج المسجد تتربص به لاعتقاله.. ولكن تدفُّق الجمهور الغفير من المسجد أربكهم فولوا مدبرين ولو إلى حين!

نشاطٌ جمعوي

فتح الله إمام ليس كأي إمام.. فقد كان زمانه زمان مواجهة شاملة مع أشباح الظلام! وليس في صف النور من الشموع يومئذ إلا القليل، والعصْف شديدٌ واحسرتاه! لكن لهيب الروح في وجدان الإمام كان كفيلاً بإشعال فتيل الشوق إلى الشروق في كل مكان! وإن له في يقينه الخارق بالنصر لَسِرًّا تنوء الضلوع به، لكن فتح الله لا يخبر به أحداً!

ومن ثم استغلّ الفتى إجازته المرضية لغرض آخر، فصار يتردد على مقر جمعية "دار الشعب"، التي كانت تابعة لحزب الشعب الجمهوري

آنذاك، والتي كانت تخدم في الغالب أفكاره العلمانية. لكن عندما كان يتولى إدارةَ بعضِ فروعها رجالٌ صالحون كانت تقدم أنشطة مفيدة. القائمون على فرع أرضروم وقتها كان أغلبهم متدينين، رغم أن الإلحاد وقتها كان هو الموضة الثقافية للجيل!

مرة دُعي فتح الله إلى مقر جمعية "دار الشعب" لإلقاء كلمة حول الصوفي الكبير جلال الدين الرومي، كان قد تدخل قبله أساتذة جامعيون وشخصيات أخرى كبيرة، وكان هو آخر المتحدّثين.. ربما أخّروه لصغر سنه.. فألقى كلمته ارتجالا كعادته، قرأ خلالها أبياتا من الشعر الفارسي، ثم ترجمها إلى اللغة التركية.. فبهر السامعين! وخالف كل المتدخلين قبله، الذين استغلوا شخصية جلال الدين الرومي لتحريف عقيدة الإسلام! لكن الفتى الإمام رسَّخ في أذهان السامعين العقيدة الصحيحة للدين.

وبقيت صورة العالم الشاب فتح الله مطبوعة في أذهان الحاضرين، وخاصة أعضاء جمعية "دار الشعب"؛ ولذلك لما كانت الدورة التالية لانتخاب مجلس إدارة الدار، استدعي الفتى فانتُخب عضوا رسميا بها، فانخرط مع أصحابه في تقديم أنشطة متميزة لإصلاح الشباب، ومحاصرة الفكر الشيوعي.

ومن ثم انتقل مع بعض رفاقه إلى مرحلة جديدة، وذلك بتأسيس ناد لمواجهة الشيوعية. وأعلن الواعظ فتح الله عن فكرة النادي على ملأ كبير من الناس بعد انتهائه من درس الوعظ بالمسجد. لكن بعض رفاقه من جماعة النور قلقوا من هذا التصرف الغريب، وأمروه بالاكتفاء في دعوته بقراءة رسائل النور للنورسي فقط... وكان أحد أقربائه خبيراً في تأسيس النوادي والجمعيات، فجاء يحذره من مخالفة بعض القوانين، وينبهه إلى

ضرورة احترام بعض الشروط القانونية عند التأسيس. ولم يكن الفتى يومها ولا رفاقه على علم بهذه الأمور. ولم يكن بربوع تركيا كلها سوى ناد واحد من هذا النوع. كان هناك في مدينة إزمير، وهي على بعد كبير جدا من مدينة أرضروم. ورغم طول المسافة ومشقة السفر؛ فقد أرسل فتح الله أحد الشباب من رفاقه إلى إزمير للاتصال بأعضاء نادي معارضة الشيوعية هناك، والإتيان بقانونه الأساسي للاستفادة منه في تأسيس ناد مشابه بأرضروم.

وتأسس النادي، ثم شرع في أنشطته، فبدأ يعطي ثماره، وكان من أقوى الوسائل في محاصرة الإلحاد ونشر رسائل النور وسط الشباب! وما هي إلا فترة أدرك بعض طلاب النور الذين عارضوا الفكرة في البداية أهمية هذا النوع من النشاط، فانخرطوا في نادي معارضة الشيوعية!

كانت تلك الأيام في حياة فتح الله -رغم قصرها- أياما مباركة، ومكتنزة جدا بالنشاط المكثف والفعالية العالية. فقد كان ينشر أفكار رسائل النور، ويوزعها في كل مكان.. كان الحماس الشديد يلهب مشاعره؛ فكان لا يترك ناديا إلا اقتحمه بخطابه، ولا مسجدا إلا شحن قبابَه بدعوته ودعائه!

العودة إلى إسكندرون

وارتقت مواجيد فتح الله إلى شرفات أعلى.. وتواردت عليه المشاهدات أوضحَ وأجلى؛ حتى إنه ليكاد يبوح بسره! ولقد ضاق بِذْلَته العسكرية ذرعاً، ووجد من تمرد روحه على حصون الظلام ما لا طاقة له بكبح جماحه! فانطلق يعقر حوافر الشر في دروب المدينة! ولولا بقية سير

لا تزال تنتظره في الطريق لحطم الجحور على رؤوس الأفاعي في كل مكان! ولكن لكشف السر موعداً، ما ينبغي للحكيم مخالفته؛ ولذلك يبكي فتح الله!

قال الراوي:

عندما انتهت فترة الإجازة المرضية، اضطر العسكري الواعظ للعودة إلى ثكنته بمدينة إسكندون.. وهناك مرة أخرى اشتغل الفتى بالوعظ بحماس بالغ، حتى لكأنه نسي تماما أنه جندي محكوم بقوانين وأعراف شديدة! فكان يعظ كل جمعة بالمسجد المركزي للمدينة. كان المسجد يغص بالجمهور العَطِشِ للدين، في بلد لا يمارس فيه الدين إلا خفية، ولا تنقل كتبه إلا تهريبا! وكان الازدحام يمتد حتى يغمر الشارع المحاذي للمسجد؛ فتتعطل فيه حركة المرور كل جمعة! وكان يلبس جبة الوعظ فوق لباسه العسكري محطِّما بذلك كل أعراف الجندية، والقوانين العسكرية، في بلد فيه للجيش ما فيه من الصولة والسلطان! وكان بعض الضباط المسؤولين في فرقته العسكرية يتعاطفون معه سِرّاً فيحمون ظهره من خلفه. لكن ازدحام الناس حول درسه كان يحرج الضباط المتعاطفين معه أحيانا، كما كانت بعض كلماته الحماسية تضعف قوة حمايتهم، وتربك صمودهم في وجه أعدائه من الضباط الآخرين!

التحقيق

كان أبوه "رامز أفندي" يزوره في إسكندرون من حين لآخر. وصادف في إحدى تلك الزيارات أن كان يوم عيد، فَقَدِمَ فتح الله من الثكنة إلى

المسجد لإلقاء درسه، فوجده قد غص بالجمهور، لكنه لم ير والده في المكان الذي يجلس فيه عادة، ولا وقع بصره على أحد من طلاب النور، فشعر بشيء من القلق.. وبعد أداء صلاة العيد، جاء من يخبره بأن والده قد اعتُقل الليلة الماضية مع مجموعة من طلاب النور!

فانطلق الفتى إلى إدارة المدعي العام على الفور. وهناك علم من بعض الإخوان أن طلاب النور قد اجتمعوا ليلة العيد، في مجلس للذكر ببيت السيد "وحيد الدين بك الإسكندروني" فاقتحمت الشرطة عليهم المكان! كانوا يظنون -حسب استخباراتهم- بأنهم سيجدون فتح الله بينهم فيعتقلونه متلبسا بجريمة تجمع غير مرخص، لكنه بسبب إعداده لوعظ العيد لم يذهب تلك الليلة إلى بيت وحيد الدين. أما والد الفتى فقد غادر بيتَ خالٍ له، كان ضيفا عنده تلك الليلة؛ فخرج غاضبا من تبرج بناته، واحتمى ببيت وحد الدين، حيث سكينة الإيمان تعمر المكان فوقع في الاعتقال!

وهناك من وراء مكتب التحقيق، سمع فتحُ الله المحققَ يستنطق والدَه:

- من أين أتى هذا النور؟

ويجيب الوالد بثبات وقوة:

- من القرآن!

- وأين يوجد في القرآن؟

- ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾!

وبعد لحظات أطلق سراح الوالد، وبينما هما في الطريق التفت إلى ابنه، فعلق على الحادث بنكتته الطريفة وبداهته السريعة، فقال ضاحكاً:

- فررنا من المطر فوقعنا تحت البَرَدِ!.. مشيراً إلى فراره من بيت خاله!

بعد الحادث مكث الوالد بضعة أيام في إسكندرون، ثم عاد إلى أرضروم.

رغم أن السيد فتح الله لم يَتَأَذَّ لا هو ولا والده في الحادث بشيء ذي بال؛ إلا أنه تألم كثيراً لِمَا حدث لِصَدِيقَيْهِ الكبيرين: السيد "وحيد الدين بك"، والسيد "نِهَاد قَرَاقُوم"، حيث تم طردهما نهائيا من الوظيفة الرسمية بسبب علاقتهما بالداعية فتح الله، ومجالس النور عموماً..!

غَضَبٌ لله..!

الغضب لله فضيلة، والغضب لله رجولة.. والغاضب لله لا يندم على غضبه أبداً!

ولذلك لم يزل الفتى الواعظ يذكر إذ زاره والده مرة أخرى في أحد أيام الصيف.. فحاول البحث عن فندق شريف بالمدينة لضيافته فيه، لكن دون جدوى.. فقد كانت الفنادق كلها عبارة عن مجالس للخمر وأوكار للفحشاء والمنكر! ووجد الفتى حرجا شديدًا في استضافة والده بأحد هذه الفنادق النتنة! وفي درس الجمعة الموالية لم يستطع الواعظ إيقاف جموح عواطفه فهاجم الفنادق بقوة، وصرح بما يفيد أن على الناس تحطيم لاَفِتاتها بقوة، وانتقد رجال الأمن متّهما إياهم بالتراخي عن محاربة الفساد والتردّي الخلقي! وكان بوضعه العسكري هذا مخالفا للقانون وما هو هنا بواعظ رسمي، فكانت مخالفاته مركبة بعضها فوق بعض! وكُتب التقرير

ضده بعد مهاجمة الفنادق وانتقاد الشرطة؛ فَسُقِطَ في أيدي أصدقائه الضباط! فاقترح عليه أحدهم أن يمدح القائد الأعلى للفرقة الثانية من الجيش الوطني "جمال تُرَالْ" الذي كان رجلا قوميا. فقيل له: "ليتك قلت كلمات إيجابية في حقه، لعلهم يوظفونها في الدفاع عنك"، فترجوه في ذلك حتى وافق. ثم غالب نفسه في الدرس اللاحق فقال بشكل بارد: "يقولون بأن قائدنا "تُرالْ باشا" رجل قومي.. فماذا سيكون الجيش التركي إذا لم يكن قوميا؟.. أطال الله عمر الذين يدافعون عن قومهم!".

وفي مساء ذلك اليوم أراد أن يركب السيارة العسكرية فزلّت قدمه في الفراغ فاصطدم بالسيارة بشدة، وسقط على الأرض؛ فتكسرت أضلاعه، وأغمي عليه! عندما أفاق وجد رأسه متوسداً ركبة الـ"بَاشْ شَاوِيشْ عَارِف"، فقال له الفتى الإمام وهو يتمزق بالألم: "أنتم الذين فعلتم بي هذا، لقد جعلتومني أمدح هؤلاء القوم مِن على منبر رسول الله ﷺ؛ فلم يرض الله مني ذلك!"

ولبث يعاني شهرين كاملين من آلام الكسور في أضلاعه، ولم يستطع الأطباء في المستشفى فعل شيء، فجاءه معالج شعبي شد أضلاعه بقوة، حتى أغمى عليه!

عندما بدأ يشعر بالتحسن شيئا فشيئا، عقد العزم على استئناف دروس الوعظ من جديد.. لكن الوضع بعد ذلك كان أصعب؛ فالضباط الذين كانوا يحمونه تم تعيينهم إلى مناطق بعيدة، فأصبح ظهر الفتى عارياً! وتَفَلَّتَ الشيطان من عقاله، فانطلق يدوس بحوافره الخشنة حدائق المدينة، ويحطم بخرطومه الخبيث أعشاش العصافير!

الاعتقال العسكري!

من منازل الابتلاء الرباني تجريدُ خُلَّصِ الدعاة من كل سند سوى سند الله! ولا يبلغ العبد مقام الاختصاص حتى لا يقوم في شيء من أمره إلا بالله! ومَنْ خَسِرَ في الاختبار ضُربت دونه الْحُجُبُ والأسوار، وسُلبت منه البصائر والأسرار..!

ولقد حدثني راوي الأشجان ذات شعاع غارب، قال:

في أول جمعة اعتلى فيها فتح الله كرسي الوعظ بعد كسور جوانحه، ألقى درسه بشكل هادئ، وبلغة حكيمة، حرصا منه على أن لا يعطي لمن يريدون اعتقاله فرصة. لكنه كان يعلم أن مجرد إلقاء عسكري لدرس ديني بلا إذن رسمي، سببٌ كاف للاعتقال والمحاكمة!

لما خرج الناس من المسجد وجدوا الجنود يطوقون الأبواب، فسمعوا أحد الجنود يصرخ:

- ترقّبوا الوغد! إذا حاول الفرار أطلِقوا عليه النار مباشرة!

لم يتمالك الناس أنفسهم فثاروا، وبدؤوا يرددون الهتافات ضد الجند، وتوتر الوضع جدا! كان فتح الله مايزال داخل المسجد، فلما علم أنه هو المطلوب خرج إليهم، فرأى قائد الشرطة العسكرية واقفا غير بعيد، فأسرع نحوه وأدى له التحية العسكرية واستسلم له! كانت نية بعض الجند أن يُحدثوا فتنة كبرى تصبح وسيلة لاعتقال كثير من المتدينين، لكن استسلام فتح الله بصورة سريعة وذكية أفشل خطتهم وأنهى عملهم، فعادوا من حيث أتوا. وفي اليوم الموالي نشرت الصحف الخبر.

كان القائد رجلا حليما؛ فجعله مع المعتقلين بسبب جرائم عادية لا سياسية؛ فساقه معهم إلى مركز الضباط. هناك رأى قائدُ الشرطة العسكرية،

القائدَ الأعلى للمركز، فأدى له التحية العسكرية، وقال له: "سيدي! إن الجندي فتح الله لما رآني قدِم نحوي فأدى التحية واستسلم!" محاولا بذلك الدفاع عن العسكري الواعظ. لكن القائد الأعلى امتلأ غيظا؛ فجعل يصرخ في وجوههما بضروب السباب والشتائم! وبقي الفتى ليلته تلك في المعتقل العسكري، وفي اليوم التالي أفرج عنه! فقد علم أصدقاؤه الضباط بالأمر فامتدت إليه أياديهم البيضاء من بعيد! ثم التحق العسكري الشاب بفرقته، فما أن رآه قائده المباشر -وكان يحبه جدا- حتى لطمه! وصرخ في وجهه قائلا: "لماذا قمتَ بإلقاء الوعظ وأنت تعلم أنهم يراقبونك؟!" وفي اجتماع للفرقة غاب عنه فتح الله في مهمة ما، قال القائد لمجموعته العسكرية: "لقد لطمت فتح الله كلطمة الوالد لولده! إنني أحبه كثيراً" ثم أجهش بالبكاء!

لكن جهات أخرى أصرّت على محاكمة الجندي الواعظ، فرفعت قضيته إلى المحكمة العسكرية! في ليلة المحاكمة بات قلقا، وفي جوف الليل قام فتوضأ وشرع في الصلاة.. ولم ينس قط -عندما كان مستغرقا في الدعاء- وهج النور الذي غمر المكان فجأة، وأضاء الفضاء بشكل خاطف مرتين، كأنما هو برق ضارب، وما هو ببرق!

محاكمة عسكرية!

ووقف الجندي الشاب بين يدي هيأة المحكمة العسكرية، كان القاضي برتبة رائد، وكان حَقودا على الدين وأهله، فابتدأ المحاكمة بالشتائم! وكان فتح الله قد غسل ملابسه فنسي ربط علامة الرتبة على كتفه؛ فاتخذها

القاضي قضية أخرى، وصرخ في وجهه: "يا وغد! أين علامة الرتبة؟ أتظن أن أباك أعطاك إياها! أأنت جندي أم صعلوك؟ اذهب وابسط فراشك في المئذنة!" ثم أمر بسجنه!

كان من بين ضباط فرقته ضابط برتبة نقيب. وكان رجلا سكيراً لا يكاد يصحو، إلى حد أنه وضع يده على راتب الفتى أكثر من مرتين واشترى به الخمر!.. فاستدعته المحكمةُ شاهدا في قضيته! فلما سأله القاضي عنه أجاب قائلا: "تسألني عن فتح الله؟ ذاك هو الرجل الوحيد المستقيم على مستوى الفرقة العسكرية كلها! إنه رجل نادر، لا يمكنكم أن تأتوا بمثله أبداً..!" وسُقِطَ في يد القاضي الظلوم؛ ومع ذلك أمر بسجن المتَّهم، ورفعت الجلسة!

وعلم الناس الخبر، فبدأت التدخلات لصالح الفتى تنطلق من كل مكان.. بعض الأعيان من جمهور المسجد زاروا القائد الأعلى للكتيبة العسكرية هناك، وكان رجلا قوميا، فقالوا له: "سيدنا! إن فتح الله رجل وطني مخلص، وليس مثلما وصفه هؤلاء.. نحن جميعنا من خلاله أحببنا وطننا، وقومنا، وتاريخنا، وعَلَمَنَا". وسافر بعضهم من أجله إلى العاصمة أنقرة، والتقى ببعض الضباط الكبار -من معارفه أو أقاربه- في مركز القوات المسلحة، فتدخل لديه من أجل فتح الله.

رائد في الجيش يُحَيِّي فتح الله!

"نَجْدَتْ بَكْ" طبيب عسكري برتبة رائد.. أبصر في شخص فتح الله ما لم يبصره كثير من الناس.. ولعله أبصر بعض شعاعات سره..! ومن يدري؟ فلعل الروح إذ تصفو مرآتها بمواجيد الإخلاص تنكشف لها

منارات المحبة في قلوب الآخرين..! والأرواح جنود مجندة لِتعارف الأشواق وتآلف الأذواق!

لقد كان الرائد "نَجْدَتْ بَكْ" رجلا شجاعاً حَقَّ شجاع، فرغم قرار منع الزيارة للجندي السجين، تسلق هذا الرجل السور بلباسه العسكري الرسمي، وقفز من فوق الأسلاك الشائكة، فدخل إلى وسط الثكنة التي يوجد بها السجن! فلما رآه الجنود الحراس قدموا له التحية العسكرية، وفتحوا له الباب لزيارة فتح الله، فلما مثل بين يديه عانقه، وقبل أن ينصرف أعطاه عشرين ليرة! وبدأ الحراس يتعجبون، ويتساءلون: "ما بال هذا الجندي الصغير يزوره كبار الضباط؟!" فبدؤوا يخافون منه، ويحتاطون من إيذائه ولو بكلمة!

لكن الضباط الأعداء لم ينسوها للطبيب العسكري، فاستنطقوه بعد ذلك وسألوه: كيف تعانق جنديا عاديا، والعرف أن يقدم هو لك التحية العسكرية احتراما للرتبة؟ فأجابهم بقوة: فتح الله ليس شخصا عاديا، إني لو تمكنت لَقَبَّلْتُ رجله، بَلْهَ أن أعانقه!

وسلم الله الضابط الجسور فلم يصبه أذى..!

دعوةٌ في السجن!

ودخل معه السجنَ فَتَيَانِ.. أما أحدهما فقد كان يعيش اضطرابا نفسيا شديداً؛ إلى درجة أنه كان يفكر في الانتحار..! وأما الآخر فقد فَرَّ من الخدمة العسكرية أكثر من مرة؛ فكان يقبض عليه في كل مرة! وكانت له في ذلك قصة مريرة!

أما الأول فبمجرد ما تعرف عليه الفتى، وأدرك مشكلته النفسية؛ حتى شرع في محاورته وعلاجه، وتذكيره بالله، وتعريفه بجمالِ قضائِه وقَدَرِه. وبدأت بشائر الأمل تنفتح في أفق الرجل؛ حتى إنه قام وحمل فراشه فجاء به إلى فتح الله فأصر على أن يوطئه له توطيئاً! وجلس ينصت إلى وعظه الجميل، ويضمد جراح روحه العميقة، ويستنشق من رَوْحِ الله أمل الحياة من جديد. وكان من حين لآخر يقول للفتى الواعظ: "يا فتح الله! إنني أرجو أن إذا قدّر الله سراحنا أن تزورني في بلدتي؛ إذن لأكرمنك إكراما ما أكرمته أحداً قبلك!" وكان الفتى يُسَرُّ بهذا الكلام كثيراً؛ لأنه كان يبشره بنجاح مهمته، وأن الرجل قد شفي من اضطرابه النفسي تماما، وعدل عن فكرة الانتحار. وكان يجد راحة في سجنه مع هذا الرجل؛ وكأن الله ما ساقه إلى هناك إلا من أجله وليؤدي هذه الوظيفة النبيلة!

وأما الآخر فقد كانت مشكلته أنه استدعي للخدمة العسكرية العادية التي لا تتعدى مدة سنتين، فإذا به يقضي فيها تسعة عشر عاماً كاملةً! والسبب هو أنه كان قليل الصبر على التعرض للأذى، غير قادر على تحمل إهانة الضباط للجنود؛ فكان يبقى بالوظيفة العسكرية، حتى إذا لم يبق له إلا شهر أو شهران من المدة الإلزامية نفذ صبره وضاقت نفسه؛ ففرّ من الجيش! ثم يلقى عليه القبض؛ فيحكمون عليه بإعادة مدة الخدمة العسكرية من البداية! لكنه إذا سنحت له الفرصة بعد ذلك فر من جديد؛ فيلقى عليه القبض ثانيا فيلزم مرة أخرى بمدة كاملة من جديد! وربما قبضوا عليه قبل أن يصل أهله، فيعودون به إلى سجنه ولما يطفئ لهب الشوق والحنين في قلبه! وهكذا ظل على هذه المعاناة السيزيفية تسعة عشر عاما! في يوم من الأيام جاءته رسالة من ابنته، تقول فيها: "أَبَتاه! لقد

أصبحتُ عروساً، ولكنك لم تنتهِ من وظيفتك العسكرية بَعْدُ..!" ودخل معه فتح الله في حوار، وعلَّمه كيف يعيش الإنسان بجمال الأنس بالله ولو كان منفرداً في زنزانة!

السَّرَاحُ الْمُطْلَقُ!

لم تنقطع التدخلات والضغوط لصالح الفتى من الهيئات المدنية والعسكرية على السواء.. إلى أن وصلت برقية من القيادة العسكرية العليا بالعاصمة بإطلاق سراحه، وفيها: "ما دام هذا الشاب قوميا؛ فلماذا تؤذونه إلى هذا الحد؟" فكانت المفاجأة أن أسوأ الضباط في معاملته جاء إليه بنفسه، فأخرجه من السجن، وذهب به إلى مكتب الإدارة، وهناك أخذ الآلة الكاتبة، وجعل يغير بعض العبارات في التقرير المكتوب ضده، ويعوضها بما يبرئه؛ مستعينا بما يمليه بعض الضباط الآخرين! وكان من العبارات التي حذفوها: "محاولة تنفيذ انْقلاب! وإثارةُ الشعب ضد الدولة!" وهناك أدرك الفتى درجة الخطر الذي كان محدقا به، حتى إذا استوى التقرير في صيغته الجديدة، قال أحد الضباط: "ليس هناك شيء يدينه الآن، أطلقوا سراحه!" فأحالوه على سجن التأديب لبضعة أيام، بتهمة الإخلال بالانضباط استعدادا لإطلاق سراحه نهائيا. وهناك عثر على ديوان "الصَّفَحات" للشاعر التركي محمد عاكف، واضع النشيد الوطني. فجعل الفتى يقرؤه ويعيده مرات عديدة حتى حان وقت سراحه.

جريدة "الاستقلال الجديد" نشرت الخبر بصيغة إيجابية، تحت عنوان: "حفيد محمد الفاتح: محمد فتح الله!" بينما نشرته الجرائد العلمانية بصورة تحريضية، تنتقد قرار السراح!

لكن المفاجأة الأعظم بالنسبة للفتى هي دخول النقيب "محمود مَارْدِين" عليه، كان هذا الرجل هو القائد الأعلى للكتيبة الثانية الكبرى على صعيد إسكندرون! وفاجأه بقوله: "فتح الله أنت رجل عظيم! لقد كنتُ أحضر دروسك بالمسجد خلسة! والآن سأسرّحك من الخدمة العسكرية مطلقا، رغم أنه بقي في ذمتك منها أكثر من شهر، وأوقّع لك وثيقة التسريح النهائي، ثم أرسلك إلى أهلك!"

شجون الذكريات..

قال الراوي:

عندما تنفس فتح الله صعداء السراح النهائي من الخدمة العسكرية، جعل يتذكر معاناته طوال السنتين الماضيتين، وما أصابه خلالها من أمراض بسبب تقشفه في الطعام، وامتناعه عن الأكل بالمطعم العسكري معتقداً أنه لا يجوز في حقه؛ لأنه لم يكن ملتزما بالخدمة العسكرية كما يتصوّرها، بل الزي العسكري نفسه كان يشتريه من ماله الخاص. ولم يذكر أنه استفاد شيئا من أدوات الثكنة وتجهيزاتها لمصلحته الشخصية، حتى الأوراق والأقلام، كان بين يديه منها الشيء الكثير.. فما امتدت يده إلى ورقة قط لكتابة أموره الشخصية أو حتى الوعظية والدعوية، ولا استعمل قلمًا منها لكتابة كلمة قط، ولا لوضع نقطة!

كانت سنتان أشبه ما تكونان بالكابوس! عاش خلالها رَهَبَ الانقلابات العسكرية! وتلقّى شتى ضروب الإهانات والمحن فثبته الله وصبر. كان سِرُّ صبره -بعد الاستعانة بربه في صلواته، وفيما يقرؤه من أدعية وأذكار-

راجعاً إلى أنه كانت له قدرة عجيبة على اقتحام الزمن، وطي سنوات المستقبل بخياله حتى إنه كان يعيش الحدث الآتي قبل أن يأتي؛ كان يسلي نفسه بما يشاهد من نهاية الخدمة العسكرية قبل نهايتها.. وبما يرى من أنها مجرد محنة عابرة.. أو أنها أشبه ما تكون برؤيا مزعجة ستنتهي بمجرد يقظته، وهو لا شك سيستيقظ قريباً، ويعود إلى زمانه ومكانه، في خدمة جيش محمد الفاتح. ولم يزل كذلك يعلل نفسه ويسليها حتى مرّت سنتان وانتهى الكابوس الثقيل!

وتخرَّج فتحُ الله من محنته بَطَلاً!

* * *

مكث الفتى بعد التسريح في إسكندرون بضعة أيام، يودع إخوانه ومحبيه. وكان من بين من قصده لوداعه أحد أصدقائه الْخُلَّص، كان غنيا، وكان يملك شركة نقل كبرى، فلما علم بتخلص الفتى من الجيش عرض عليه مباشرةً العمل في شركته بصفته مديراً عامّاً! لكن الفتى رفض بدون تردد؛ فما كان يفكر في كسب مادي قط، وما كان يتصور يوما أن يغادر ساحات العمل الدعوي، والمواعظ والمساجد! فمنذ بداية شبابه الأولى كان قد نذر حياته لهذا الأمر، فحتى الخدمة العسكرية القاسية، لم تستطع أن تَحول بينه وبين ذلك الأمر فعانى من ذلك ما عانى!

حتى إذا أدى واجب الوداع لإخوانه قفل راجعا إلى مدينته أرضروم. فأرضروم هي مطاره المفضل للتحليق في سماء الهجرة، ومن هنالك فقط يستطيع تحديد اتجاه الرحيل الجديد..!

عندما حل بمدينته كان رمضان على الأبواب، فقصد مفتي المدينة لطلب الترخيص بممارسة الوعظ بالمساجد خلال الشهر الكريم. لكن

المفتي "ثاقب أفندي" لم ينس طبعا حادثة السينما السنة الماضية؛ فرفض طلبه على الفور! ورجع فتح الله إلى بيته كسير القلب حزينا. وسرعان ما سمع سكّانُ المدينة بالخبر فتجمّعوا أمام مبنى إدارة الشؤون الدينية متظاهرين! ورفعوا ضد المفتي شعارات قاسية، وصاح بعضهم: "الشخص الذي يمنع "فتح الله أفندي" من الوعظ لم تلده أمه بعدُ!" ولم يكن الواعظ الشاب على علم بشيء من ذلك؛ حتى أُخبر بأن المفتي قد غيّر رأيه تحت ضغط المتظاهرين، وسمح له بالوعظ! فوعظ طيلة الشهر الكريم، لكن دون حدوث أي مكروه، إلى أن انتهى شهر السلام بسلام.

أشواق الهجرة تهب من جديد!

قلبُ فتحِ الله غابة من الأسرار... إذا هبت عليها رياح الشوق، هاجت الأشجار وناحت الأطيار..!

وَفَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!

.....

ثم بدأ شوق الهجرة يلهب ضلوعه من جديد. فالهجرة في حياة فتح الله منهاجُ حياة، ومسلكُ روح، وطريقُ سَيْرٍ إلى الله، ورحلةٌ أبدية في طريق

تجديد الدين، وخدمة حقائق الإيمان. فالنور الذي سكن قلبه يأبى عليه الثواء بين الأهل والأحباب. ففتح الله منذ أن سمع نداء الروح، لم يزل سائرًا في طريق هجرته المقدسة حتى تفطرت قدماه!

واستيقظ الحنين في قلبه إلى مدينة أَدِرْنَه.. تلك المدينة الحزينة التي ضمدت جراحه وضمد جراحها، واتحدت أشواقها بأشواقه حتى صارا ذاتا واحدة، ومأساةً واحدة! بَيْدَ أن أم فتح الله كانت قد تأثرت بغيابه الطويل ما بين أَدِرْنَه والانخراط العسكري.. حتى غصت به أحزانها! فكانت ترغب في بقائه بأرضروم إلى جانبها.. ولقد حاولت بعواطفها الدافئة ثَنْيَهُ مرة أخرى عن الرحيل، لكنه تلطف بها حتى أرضاها. صحيح أن لها أبناء غيره، لكن فتح الله له في قلبها طعم آخر، ووجيب كريم. ولعلها من أجل ذلك كانت تصر على تزويجه من أرضروم. والزواج هو قفص الشباب الطائر، وقيد الحصان الجموح. وما كان فتح الله بهذا ولا ذاك، وإنما كان روحا عاشقا لرياح الهجرة في سبيل الله.. وما كان بالذي يضيق بمدينته وأهلها ذرعا، كلا كلا! فقد كان عاشقا لأرضروم ومحيطها.. ففي باديتها ولد، وفيها نشأ وترعرع، وفيها دفن أعز ذكرياته وأشجانه، جَدَّيْهِ وبعض إخوانه وشيوخه! ولكن شوق الهجرة إلى الله كان أقوى بقلبه! وقد كان وعيه بمهمته الدعوية قديماً، وإحساسه بوظيفته الكبرى عظيماً، وكانت بوارق الشوق إلى واجب الوقت تلمع في أفق شبابه الأول؛ فما كانت تترك عواطفه تركن إلى مألوفها، ودفء ديارها!

ومن كان يحمل مثل سر فتح الله تنوء به رحاب المدائن والأمصار..!

فسياحةً يا خيلَ الله سياحة!